السياسة الخارجية بعد ثورة التحرير: (إعادة) تعريف دور مصر في الشرق الأوسط

محمد أوزكان

مراجعة: مظفر شَنَل

يحلل هذا الكتاب الاستمراريات والتغيرات والانقطاعات والتحولات في السياسة الخارجية المصرية من مختلف الزوايا. كانت التغيرات في السياسة الخارجية المصرية، اتساقًا مع الربيع العربي وقوى تحولاته، مهمّة للمحللين والممارسين والباحثين في مجال نظرية السياسة الخارجية والعلاقات الدولية. منذ نهاية الحرب الباردة، أصبحت الأوساط الأكاديمية أكثر تقبلًا لقضايا الشرق الأوسط واهتمامًا بها. لكن في العقد الأخير، دارت معظم الأعمال الأكاديمية عن الشرق الأوسط حول عدد قليل من الموضوعات: العنف الإثني/ الديني، والنزاع العربي/ الفلسطيني- الإسرائيلي، والمسألة النووية الإيرانية، والمشكلات ذات الصلة بإسرائيل. ورغم وفرة الأدبيات الصادرة حول السياسات الخارجية لدول الشرق الأوسط، يفتقد كثير من هذه الأعمال التحليل النظري للتموضع الجيوستراتيجي لهذه الدول ضمن ديناميات القوى السياسية الدولية. يساعد التموضع الجيوستراتيجي في قياس الوزن المحتمل لدولة ما ضمن النظام الإقليمي والدولي القائم، بما يؤدي لتحليل الدور الذي تستطيع الدولة أداءه في السياسة الدولية. لذا، يعد كتاب محمد أوزكان إضافة في حينها إلى هذه الأدبيات بتحليله التاريخي المعمق ونهجه النظري.

بعد المقدمة، يتكون الكتاب من ثلاثة فصول. يؤسس الفصل الأول للإطار النظري بالتركيز على مفهوم القوة الوسطى المحورية وعلاقاتها بالنظرية البنائية. يقدم الفصل الثاني آفاقًا تاريخية تحليلية حول السياسة الخارجية المصرية منذ ثلاثينيات القرن الماضي، خاصة من منظور موقف مصر من القضية الفلسطينية والموقف من إسرائيل. يركز الفصل الثالث على كيفية وأسباب فقدان مصر لصدقيتها وجاذبيتها في عقول وعيون دول الشرق الأوسط. يشرح أوزكان العوامل التي أسهمت في المحدوديات والفرص التي أدت لمختلف الصياغات والتحولات للسياسة الخارجية على مدى سنين. يتسق تحقيب المؤلف للسياسة الخارجية المصرية مع دور القاهرة الإجمالي في الشرق الأوسط. ويربط المؤلف هذا الدور بالقضية الفلسطينية، ويقدم هذه القضية المهمّة أساسًا مفاهيميًّا للكتاب. يعرف المؤلف مفهوم القوة الوسطى المحورية من خلال البنائية ويستكشفه في سياق تاريخي. يقدم أوزكان أسبابًا واضحة وموجزة لـ«تراجع» مصر بالتركيز على افتقاد الدينامية في القيادة فكرًا وسياسة. كذلك، يشير إلى المناطق المهملة في السياسة الخارجية المصرية، أي البعد الإفريقي. وهذه مساهمة مهمّة في مجال سياسة مصر الخارجية.

عـلى مدى العقـود الثلاثة الأخـيرة، واجهت مصر تحديـات كبيرة ناجمـة عن القضية الفلسـطينية، وعملية السـلام العـربي الإسرائيـلي، والتخلـف الاقتصـادي، والعلاقـات الوثيقـة بالولايـات المتحـدة وإسرائيـل. وكـما سـجل أوزكان بصراحـة بالغـة، «تقـع القضيـة الفلسـطينية في قلب شـبكة معقدة من هذه التحديات» (ص19). يقـدم المؤلـف القضية الفلسـطينية والربيع العـربي باعتبارهمـا العاملـين الحاسـمين لموقـف مصر من السياسـات الإقليمية. بل إن دور مصر المسـتمر في تحولات العـالم العربي والنظـام والاسـتقرار الإقليمي يطـرح الأسـئلة الأربعـة الآتيـة: (1)هل تطـور مصر سياسـتها الخارجية بما يتسـق مـع الربيع العـربي؟ (2) هل هناك حاليًّا إعادة صياغة لسياسـة خارجية مصرية ستعالج مشـكلات الإقليم القديمة المزمنة مع تحديات وفـرص الربيـع العـربي؟ (3)مـا نـوع التغـيرات التي سـتحدث في السياسـة الخارجية؟ (4)مـا التأثير الذي تسـتطيعه مـصر في تغيـير موقفهـا الدولي؟ ومـا طبيعة الدور الذي ستضطلع به بعد ثورة التحرير؟

يبحـث أوزكان عـن أجوبة لهذه الأسـئلة بدراسـة تأثـير القضية الفلسـطينية وثـورة التحرير في السياسـة الخارجيـة المصرية باسـتخدام مفهـوم القوة الوسـطى المحوريـة إطـارًا نظريًّا. وهـي مهمة شـاقة للغاية نظرًا لعدة أسباب. أولًا، إن أدبيات العلاقات الدولية إجمالًا والسياسة الخارجية خصوصًا تركز بمعظمها على القوى العظمـى وعلاقاتها. فالأدبيات المنشـورة حول القوى الوسـطى وعلاقاتها بالأطـراف الفاعلة محـدودة جدًّا. ثانيًـا، يصعب تحليل الظواهر المسـتجدة تمامًا والعملية الثورية الجارية في مصر. وبينما كان أوزكان ناجحًا تمامًا في معالجـة الغمـوض النظـري والتوصـل إلى وضـوح تحليـلي باسـتخدام الخلفية التاريخية للسياسـة الخارجية المصرية بكفاءة، جاءت محاولته لتحليل الوضع الجديد غير كافية. هذا يعود غالبًا إلى أن الوضع بمصر لا يزال متقلبًا. لذلك، لا يبدو هذا الجزء من الكتاب متكاملًا.

يتعاطـى معظـم الكتـاب مـع السياسـة الخارجيـة المصريـة وسياسـات الشرق الأوسـط في الثمانـين عامًا الأخيرة. ويتبع إجمـالًا خطوطًا معلومة جيدًا. ما يجعله مثيرًا للاهتـمام تبصراتـه النظرية والتحليليـة الإضافية المسـتقاة من خبرتـه بصفته باحثًا في السياسـة الخارجية المصريـة. لكـن يوجـد تعـارض بـين عنـوان الكتـاب ومحتـواه. فهنـاك فصل واحد قصير، يركز على سياسـة مـصر الخارجية بعد ثـورة التحريـر وتعليقات مختصرة حـول سـيناريوهات المسـتقبل المحتملة. فعندمـا يقرأ المـرء عنـوان الكتـاب، يتوقع أن يجـد إجابات شـاملة عـن الأسـئلة المطروحة، لكنه لا يجدهـا مفصّلة في هذا الكتاب.

رغـم أوجـه القصور هـذه، تبـدو محاولـة أوزكان في تفسـير ثـورة التحريـر ونتائجها بالنسـبة للعلاقات المحليـة والخارجيـة مقبولـة، وتقـدم رؤية مـن خارج الدائرة. كمقدمة لدراسات السياسة الخارجية المصرية. يعد هذا الكتاب بداية طيبة لصناع السياسات وطلاب الدراسـات العليا والباحثين المهتمـين بفهم التحديات والمحدوديات التي تواجه مصر إقليميًّا. ■